شفيق جبري واللغة

د. لطفية إبراهيم برهم(*)

نتخذ من إشارة «شفيق جبري» إلى قول أحد الأساتذة في كتابه (البشرية قبل التاريخ): «اليد، اللغة، هذه هي البشرية!»(١) مدخلاً للحديث عن علاقته باللغة، متجاوزين اليدَ، بوصفها عنوان تقدّم المنطق العملي، مسلّطين الضوء على اللغة، بوصفها عنوانَ تقدّم المنطق الفكري(٢)، وميراثنا الوطني الذي حفظ هويتنا من الضياع. يقول: «ولئن عبثت الأيام بمديد ملكنا في القديم فقد عجزت عن أن تعبث بميراثنا الوطني، وهو: اللغة، صارعت لغتنا لغات شتى تعاقبت على آفاقنا من قديم الدهر فصرعت هذه اللغاتِ بحذافيرها بعد أن سلبت حضارات أهلها أجمل جمالها وأحسن حسنها وتمكّنت في كثير من بقاع الأرض تمكّن الأحياء الذين صارعتهم الطبيعة وصارعوها ومارستهم ومارسوها فعجزت عنهم وتركتهم وشأنهم،

(*) أستاذة مساعدة في كلية الآداب – قسم اللغة العربية – جامعة تشرين – اللاذقية.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٩/ ١٢/ ٢٠١٨م.

(١) شفيق جبري، أنا والنثر، محاضرات ألقاها الأستاذ «شفيق جبري» على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠، ص١٥١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص١٥١.

خرجت لغتنا من جميع مصائبها قوية في أصولها وفروعها، سليمة في تركيبها وبنيتها، فتّانة في أنغامها وموسيقاها...»(٣).

نتوقف في هذا المقبوس عند مجموعة من العلاقات تخصّ اللغة، هي:

أولاً: اللغة والهوية:

١- اللغة والهوية الوطنية:

انطلاقاً من عبارة أن ميراثنا الوطني هو اللغة، بوصفها عنصراً من عناصر الهوية التي تتحدّد في مفهومها الشامل بأنها «قيمة جوهرية في حياة الإنسان بوصفه كائناً ثقافيًّا قبل أن يكون كائناً بيولوجيًّا، وجوهرُ الهوية الانتماءُ، وهو الذي به يفارق الإنسان آدميّته الغريزية مرتقياً إلى آدميته المتسامية»(٤) = نجد أنّ اللغة هي جزء جوهريّ من الهوية الوطنية، والوطن الحيّ المتدفّق الذي يسكن قلب كلّ واحد منّا، وهذا يعني أننا إذا سلبنا البلادَ عنوانَ انتمائها الوطني، وهو اللغة، فكأننا سلبنا من كل فرد عنوان ذاتيته(٥)؛ لأن «للهوية علاقة بالتطابق مع الذات عند شخص ما أو جماعة بمجموعة اجتماعية ما في جميع الأزمنة وجميع الأحوال، فهي تتعلق بكون شخص ما أو جماعة ما قادراً أو قادرة على الاستمرار في أن تكون ذاتها، وليس شخصاً آخر أو شيئاً آخر»(٦)؛ وبذلك نجد قِراناً تامًّا بين مفهوم الهوية

---

(٣) المصدر السابق، ص١٩.

(٤) د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط١، كانون الثاني/ يناير/ ٢٠١١، ص٦١.

(٥) ينظر: المرجع السابق، ص٦٤.

(٦) طوني بينيت - لورانس غروسبيرغ - ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط١، أيلول (سبتمبر) ٢٠١٠، ص٧٠٠.

الوطنية والمقوّم اللغوي؛ لأن اللغة، بما فيها من إحساس بالانتماء، هي الحامل الرمزي المشترك بين أبناء الانتماء الحضاري الواحد، وثابت من ثوابت الأمة، ومقوّم من مقوّمات الشخصية الوطنية الراسخة والانتماء الحضاري؛ لذا «يتحتّم السعي إلى تطوير اللغة الوطنية والارتقاء بها حتى تنهض بكفاية واقتدار بقضايا العلم والتقانة والفكر المعاصر خلقاً وإبداعاً وحتى تسهم عن جدارة في حضارة الإنسان»(٧)؛ وبذلك تكون اللغة العربية مقوّماً مهمًّا من مقوّمات تعيّن الهوية؛ لأن الشعور بالانتماء يضعف أو يزول من دونها. فاللغة، إذن، تحافظ على هوية الأمة، ومشاعرها، ونمط تفكيرها، وطرائق حياتها وثقافتها وإرثها الحضاري، مشكّلةً مقوّماً أساسيًّا مرتبطاً بفكرة العروبة ارتباطاً جذريًّا عبر تاريخها.

- **ثنائية (الأنا والآخر)**: وهي ثنائية مبنية على الصراع بينهما، «صارعت لغتنا لغات شتى تعاقبت على آفاقنا من قديم الدهر، فصرعت هذه اللغات بحذافيرها بعد أن سلبت حضارات أهلها أجمل جمالها وأحسن حسنها وتمكّنت في كثير من بقاع الأرض...». فلغتنا نحن لغة (الأنا) الوطنية صارعت لغات شتّى لغة (الآخر)؛ وبذلك أصبح مفهومُ الوطنية، بوصفه قرين المقوّم اللغوي، مفهوماً للمواجهة، وسلاحاً من أسلحة الدفاع عن هوية الأمة، ووسيلة من وسائل تأكيد امتدادها التاريخي. فاللغة، بوصفها ميراثنا الوطني - كما يرى «جبري» - تحمي الأنا من الضياع والاغتراب، وتردّ عليها توازنها في صراعها مع نقائضها، وتبقي عليها وحدتها في مواجهة ما يهدّدها بالتفتت، وتساعدها على دعم عناصر قوتها في حصار اللحظة التاريخية الإشكالية؛ وبذلك تكون الهوية ردّ فعل ضدّ الآخر،

(٧) د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص١٢١.

ونزوعاً لتأكيد الأنا بصورة أقوى في مرحلة الصراع؛ أي: إنها تبرز أكثر وأكبر ما يكون البروز في المجابهة والصراع، لأنها لا توجد دفعة واحدة، بل توجدها عملية تكوّن دائم، تقطعها الوقفات والأزمات.

ومن خصائص هذه الثنائية الشعور بقوة (الأنا) في حضور الآخر، وهو شعور ينسرب بأشكال مباشرة وغير مباشرة مع كل تعامل مع «الآخر» أو ثقافته أو إنجازاته الحضارية. فالأنا (اللغة) واحدة، والآخر متنوّع، ومتعدّد، ومتناقض، ومتنافر، بحضورها الخاص، وعليه يغدو وجودها المضاد للآخر صدًى منعكساً لغيابه، فيحقق خصوصيتها التي تحميها، أو أصالتها التي تصونها. كل ذلك يفضي إلى مركزية (الأنا = اللغة)، وإلى إثبات الذات ونفي الآخر؛ وبذلك تكون صورة (الأنا) أو النقيض الموجب، مقوّماً مهمًّا من مقوّمات الهوية. والحقيقة أنه ما من حضارة إنسانية ازدهرت وتألقت إلا كانت لغتها رمزاً لازدهارها ولتألقها؛ لذا نجد التحاماً رمزيًّا بين المنجز الحضاري العيني واللغة التي تعبّر عنه، وتجسّد ثقافته؛ وبذلك يتحقق التحام الهوية الثقافية حضاريًّا بالهوية اللغوية. ففي الهوية الثقافية تشتغل جدلية الأنا والآخر، وتعيد كلّ مجموعة بشرية تأويل ثقافتها من خلال اتصالاتها الثقافية. فالهوية الثقافية ليست معطًى جاهزاً ونهائيًّا، بل هي كائن حيّ يتحوّل ويتغيّر داخليًّا وخارجيًّا، إنها تغتني بتجارب أهلها وانتصاراتهم وتطلعاتهم، كما تغتني باحتكاكها سلباً وإيجاباً بالهويات الثقافية الأخرى. فالهوية الثقافية والحضارية لأمة هي الجوهر، والسمات المشتركة، والقسمات التي تميّز حضارة أمة من غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية طابعاً تتميّز به من الشخصيات الوطنية الأخرى؛ وبذلك تفتح هذه الهوية السياق على مفهوم صراع الحضارات.

٢- اللغة والهوية القومية:

يُعنى سؤال الهوية بطرائق محدّدة في تخيّل جماعات اجتماعية وتأسيسها والانتماء الجماعي إليها، فتكون الهوية، هنا، هوية جمعية، تضع مبادئ الوحدة والاستمرارية في الصدارة. إنها هوية يعمل منطقها لمصلحة الكمال والتماسك في ضوء العلاقة بما صار يُعرف بالذات الجمعية؛ إذْ تمّ تصوّر الجماعة بوصفها كياناً منسجماً متجانساً، وأمة ذات جوهر مشترك، أُنكر تعقيدها الداخلي وتشعّبها؛ إذ يمكننا أن نجد، أولاً، أن الصور الغالبة تنتمي إلى عائلة قومية واحدة، وجسد واحد، ودم مشترك، ووطن للجميع. وثانياً، كانت الجماعة تريد المحافظة على ثقافتها وتراثها وذكرياتها وقيمها وطابعها، لا سيّما فرادتها، عبر الزمن، وتنكر واقعية التغيّر والانقطاع التاريخيين؛ فأضفت قيمة إيجابية على الاستمرارية بين الأجيال والقوة الأخلاقية للتراث(٨).

ولا تفارق اللغة هذه العائلة القومية الواحدة في رؤية «جبري»، فالإحساس بالعزة اللغوية قرين طبيعي للإحساس بالعزة القومية، يقول: «اللغة أعظم شيء في حياة الأمة التي تتغنى بقوميتها وتجاهد في سبيل هذه القومية، وإذا ذهبت أشياء كثيرة من ميراثنا القديم فقد بقيت هذه اللغة التي طويت قلبي على حبها وفتنت بسحرها...، وإذا كنت أعجب من شيء فإني أعجب من هذه النغمة الشائعة، نغمة العامية في الكتابة، فكأن أصحاب هذه النغمة لا يفكّرون في عواقب مذهبهم، كأنهم لا يعلمون أن العامية إذا استفاضت ضعف باستفاضتها سلطان قوميتنا نفسه، فالعربية الفصيحة هي الزمام الوحيد الذي يشدّ أهلها بعضهم على بعض، فيؤلف بين أمصارهم

(٨) ينظر: طوني بينيت – لورانس غروسبيرغ – ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، ص٧٠١ـ ٧٠٢.

وينسّق شعورهم ويوحّد إحساسهم، على حين العامية تباعد بين أبناء هذه اللغة حتى يأتي زمان لا يفهم فيه أحد منهم أحداً»(٩).

لقد ربط «جبري» بين اللغة العربية الفصحى والقومية، منبّهاً على خطر العامية، أو اللهجات العامية التي اكتسحت المجال الحيوي للغة الفصحى: اللغة القومية، فغزت العامية في عصره أقلام الكتاب، وغزت العاميات في عصرنا منابرنا الإعلامية: السمعية والبصرية، وسكنتنا، كما غزت مجالسنا الفكرية؛ التدريس، وحواراتنا الثقافية. إن بقاء الوضع اللغوي على حاله، واستفحال ظاهرة التفكّك التدريجي الذي ينخر اللغة القومية سيُعقّدان مهمة ردم الفجوة الثقافية، التي ظللنا نسعى إليها منذ بداية النهضة الحضارية، وهو وضع أنتج أسئلة، أهمّها ما نجده على لسان عبد السلام المسدي بقوله: «كيف نتحدّث عن الموارد البشرية وتنميتها، أو عن التخطيط المستقبلي الشامل، ونحن نعيش انفصاماً بين أدوات المنظومة التربوية وشروط النهضة الحضارية؟ كيف نرقى إلى آليات الاستثمار في حقل التواصل؟ وكيف نُمسك بأساسيات اقتصاد المعرفة ومجتمعُنا العربي هو المجتمع الوحيد... الذي يتخرج فيه التلميذ من التعليم الثانوي، وهو عاجز عن تحرير عشر صفحات تحريراً سليماً: لا بلغته القومية ولا بلغة أجنبية؟»(١٠). فمن المتعذّر على أي مجتمع أنْ يؤسس منظومة معرفية من دون أن يمتلك منظومة لغوية، شاملة، مشتركة، متجذّرة، حمّالة للأبعاد المتنوعة: فكراً، وروحاً، وإبداعاً. فاللغة هي الحامل الضروريّ المحايث لكلّ إنجاز تنموي؛ وبذلك تكون اللغة - بما هي موضوع للتعليم وللبحث وللإنتاج - ركناً

(٩) شفيق جبري، أنا والنثر، ص١٧٩-١٨٠.

(١٠) د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص٢٠، ٢١.

أساسيًّا في كل مشروع اقتصادي[(١١)]. واللغة المحدَّدة، هنا، هي اللغة الفصحى: اللغة القومية؛ لأن العامية تقوّض اللغة من داخلها، فتؤدي إلى تشظي اللغة العربية الفصحى، وزعزعة الأمن اللغوي الذي يعدّ جزءاً «لا يتجزّأ من الأمن القومي، ولا يقلّ أهمية عن الأمن الغذائي والأمن المائي»[(١٢)]. وهذا يعني أن قبول «تفتيت اللغة القومية هو الخطوة الأولى الحاسمة نحو قبول تفتيت الذات، وقبول تفتيت الهوية، فقبول تفتيت السيادة، ثم قبول تفتيت الأرض»[(١٣)]؛ وبذلك يكون مشروع التفتيت الثقافي قد اتخذ سبيله عبر تفكيك معمار اللغة العربية من داخلها، بتفتيت اللغة الفصحى إلى عاميات؛ أي: إن امتلاك السيادة الثقافية داخلياً وخارجياً يتوقف، في الأساس، على سيادة اللغة العربية الفصحى بين أبنائها؛ لأنها مقوّم مهمّ من مقوّمات الهوية العربية.

فاللغة القومية ليست مجرد وسيلة تعبير وتفاهم بين إنسان وآخر، بل هي، بحكم منطقها الداخلي وتاريخيّتها وبناها وتراكيبها، رابطة اجتماعية فكرية من الدرجة الأولى. يتبيّن ذلك من زوايا ثلاث من النظر يتكامل بعضها مع بعض: فاللغة أداة تلقي المعرفة، وأداة التفكير ورمزه وتجسيده، إنها الفكر نفسه في حالة العمل. فليس ثمة فكر مجرد بغير رموز لغوية، ولا تفكير إلا في الألفاظ. وبقدر ما تكون اللغة دقيقة حية منظمة يكون الفكر دقيقاً حيًّا منظماً. واللغة من جهة أخرى تمثّل ذاكرة الأمة، تختزن فيها تراثها، ومفاهيمها، وقيمها، فهي أداة التواصل بين الماضي والحاضر، كما

(١١) ينظر: المرجع السابق، ص٢١.

(١٢) المرجع السابق، ص١٣٧.

(١٣) المرجع السابق، ص٦١.

تمثل الذاكرة الحضارية، وقوام الشخصية، ومناط الأصالة. واللغة من جهة ثالثة أداة أساسية في حركة المجتمع ونموّه، وذات وظيفة اجتماعية وثيقة الصلة بهذه الأمة وبتطورّها المستقبلي.

أما العلاقة بين اللغة والمجتمع فهي علاقة متبادلة صميمية، لأن اللغة لا تتحرك من دون مجتمع يتحرك، ولأن المجتمع لا يتحرك من دون لغة حركية تماثله وتواكبه. واللغة العربية لهذه الأسباب جميعاً تتصل بميادين ثقافية عدّة هي من أكثر الميادين خطراً وشأناً: ففيها الخصوصية القومية، والوحدة السياسية، وحيوية الفكر العلمي، والإبداع الأدبي والتراث والاستمرارية الثقافية...، اللغة العربية هي أبرز مظاهر الثقافة العربية، وأكثرها تعبيراً وأثراً، بوصفها وعاء الوجدان القومي، فلا ثقافة قومية من دون لغة قومية. والمناطق الثقافية الكبرى والصغرى، إنما يربطها بعضها ببعض الوحدة اللغوية في الدرجة الأولى، وكثيراً ما تندمج خلائط عرقية متباينة في إطار ثقافة قومية واحدة نتيجة للعامل اللغوي والاجتماعي الموحد(١٤). فاللغة الفصحى تحقّق الخصوصية القومية، والوحدة السياسية، والاستمرارية الثقافية، محقّقة بذلك الهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية؛ وبذلك تكون اللغة مقوّماً مهمًّا من مقوّمات الهوية: الوطنية والقومية، وحاملة التراث الثقافي والحضاري، وآلة النتاج المعرفي والإبداعي، يتطلّب الحفاظ عليها، والنهوض بها، والعمل على أن تكون وافية بمطالب العصر متسعة لحاجاته وثورته المعرفية، فضلاً عن التقدّم المذهل في مجالات العلوم والتكنولوجيا، يتطلّب ذلك كلّه - كما يرى المسدي - «أن يكون لمجمعها من سلطة القرار ومرجعية الرأي ما يجعله قادراً على الفعل

---

(١٤) ينظر: د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص١٣٤، ١٣٥.

والعمل، وهو الأمر المتحقّق بالفعل بالنسبة إلى عدد من المجامع اللغوية العربية، فللمجمع... رأي، ولهذا الرأي وزن، ولا بدّ من التمكين لهذا الرأي حتى يمارس دوره ويحقّق فاعليته»[١٥]؛ وبذلك يقترن وجودنا التاريخي والجغرافي بالوجود الثقافي، هذا الوجود الذي يحدّد خصوصيتنا الثقافية، ويشكّل هويتنا وانتماءاتنا أمام الآخرين في ظلّ ما يسمّى اليوم بالثقافة المعولمة، بوصفها «بشيراً بأزمة هوية. وغالباً ما تكون استجابة مَنْ يشعرون بأن هوياتهم تتعرض للتقويض على هذا النحو هي التمسك بهوياتهم وثقافاتهم («التقليدية») المألوفة وإعادة تأكيدها»[١٦]؛ أي: إن وجودنا، بوصفنا مجتمعات عربية في التاريخ والجغرافيا، مرهون بالمقام الأول بوجودنا الثقافي الذي يضمن للأمة الاستمرارية التاريخية، ودرجة عالية من التجانس والانسجام بين السكان في الوطن العربي، والهوية القومية والوطنية التي تحافظ على صورتنا أمام الأمم الأخرى؛ وبذلك يكون مفهوم الهوية مفهوماً متحرّكاً، وهو في حالة بناء دائم من خلال الوضعيات التي يكون فيها الأفراد، والجماعات، ونوعية العلاقات الموجودة بينها، وفي كل تلك الوضعيات وما يحدث داخلها من علاقات، يقوم شعور الانتماء بوظيفة مهمة هي تأكيد الهوية، ورسم ملامحها.

ثانياً: اللغة والتطور:

بيّن «جبري» أن علماء اللغة في القديم، اجتهدوا في حصر اللغة حتى لا تتقاذفها مهابّ الأطوار التي طرأت عليها، فاستعصت اللغة عليهم،

(١٥) المرجع السابق، ص١٤٣.

(١٦) طوني بينيت – لورانس غروسبيرغ – ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، ص٧٠٤.

ومضت في سبيلها لا تلوي على شيء، خاضعة في ذلك لتأثيرات بيئتها الجديدة، ولما نشأ في هذه البيئة من عوامل كثيرة، كعامل الحضارة، والاجتماع وغيرهما(١٧)، وهما عاملان مهمّان استند إليهما «جبري» في حديثه عن تطوّر اللغة؛ لأنها تتأثر بالبيئة والمجتمع والحضارة، تأثراً يمسّ اللغة العربية الفصحى: اللغة القومية، بوصفها الرمز الأعلى المعبّر عن الهوية في الوعي الفردي، والوعي الجمعي، وهي لغة تؤهّلها طبيعتها الحية لاحتضان الثورة المعرفية عبر الآليات الآتية:

١- المشتقات:

يرى «جبري» أن وجود المشتقات في اللغة العربية أسهم في عدم التنقيب عن المفردات الميتة، أو الألفاظ الحوشية الغريبة، لاستعمالها في بعض كتاباته؛ لأنها، برأيه، لا تناسب روح العصر الذي يعيش فيه. فاللغة ليست جامدة، بل هي حيّة، لها حركتها الدالة على حركة الذهن. يقول: إن للغة «صيغاً شتى تدلّ على المعاني المختلفة، فقد رزقت حركة غريبة وأبعد الله عنها الجمود، وكلّ صيغة من هذه الصيغ مثل: استفعل أو فاعل أو تفاعل... أو غير هذه الصيغ إنما تدلّ على حركة خاصة من حركات الذهن، وعلى هذا الشكل نجد الذهن يتحرّك نشاطه ولا يجمد، فهو يخلق لكلّ معنى من المعاني صيغة خاصة، فإنَّ طلب الغفران مثلاً يُعبَّر عنه باستغفر، أي: بفعل واحد، وأظنّ أن بعض اللغات لا بد لها في هذا المعنى من اللجوء إلى مادتين أو أكثر. وكذلك نجد مثل هذا الخصب في أسماء المكان والزمان والآلة...»(١٨). فـ «جبري» لا يستعمل في كتاباته ألفاظاً لا تناسب روح العصر، كما يفعل بعض أساتذة

---

(١٧) ينظر: شفيق جبري، أنا والنثر، ص١٤٨.

(١٨) شفيق جبري، أنا والنثر، ص١٤٧-١٤٨.

اللغة الذين يستظهرون معاني المفردات، ولا ذوق لهم في الكتابة، وهم بمنزلة معجمات متحركة(١٩). فبتوليد المشتقات، إذن، نحن قادرون على إيجاد المفردات والتراكيب العربية السليمة التي تحيط بكل حاجاتنا التعبيرية، من دون اللجوء إلى الألفاظ الميتة أو الحوشية.

ولم يكتفِ «جبري» بذلك، بل التفت إلى مراقبة النسبة الروحية بين المادة ومشتقاتها، وهي نسبة أو صلة روحية محمولة إما على حقيقة المعنى، وإما على المجاز؛ لأن المادة ومشتقاتها تعيش في أسرة لغوية واحدة(٢٠)، وهو التفات يفتح السياق على نظرية الحقول الدلالية، بوصفها مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها(٢١).

٢- التطور الدلالي للألفاظ:

فُتِنَ «جبري» بتتبّع التطوّر والنموّ في عالم اللغة، مسلّطاً الضوء على نقل معاني الألفاظ من وجه إلى وجه، كما نقلت بعض معاني ألفاظ الجاهلية في الإسلام، وكتب اللغة، كالمزهر وغيره، قد ملئت بهذه الألفاظ التي حُوِّلت معانيها كالإسلام، والصلاة، والصوم، والزكاة...إلخ(٢٢)، الأمر الذي دفعه إلى الاهتمام بالمصادر وتطوّر معانيها، فبعضها ثابت على أصل معناه، وبعضها ينتقل من معنى إلى معنى، وبعضها يموت. فـ «جبري» يتتبع في حياة الألفاظ ميلاد بعضها، وموت بعضها الآخر، كما يتتبع انحراف

(١٩) ينظر: المصدر السابق، ص١٤٧.

(٢٠) ينظر: المصدر السابق، ص١٤٧-١٤٩.

(٢١) للاطلاع على نظرية الحقول الدلالية ينظر: د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ساعدت جامعة الكويت على نشره، د. ط، ود. ت، الفصل الرابع، ص٧٩-١١٣.

(٢٢) ينظر: شفيق جبري، أنا والنثر، ص١٤٧-١٤٩.

بعض الألفاظ عن معانيها، ودخولها في المعاني الجديدة، وهذا يعني أن للغة عالمها الذي يشبه عالم الطبيعة[٢٣]؛ وبذلك يكون «جبري» قد مثّل اللغة بالكائنات الحية، إذْ يجول مفهوم الحياة ومفهوم الممات، وبينهما مفهوم البقاء إذا اجتمعت مقوّماته، ومفهوم الفناء إنْ تحتّمت دواعيه. ولكن هذه التجليات المختلفة لتطوّر اللغة شأنها شأن «النشأة» حين نستكشف ظروف «ولادة» اللغات بعضها من بعض - لا تحصل في المدى الزمني الذي يحيط به إدراك الفرد الآدمي، ولذلك صعبَ الوعي بها، بوصفها حقائق تتنزّل على الواقع اللغوي كما نعيشه، واقتصر الوعي على ما مضى في الزمن المنقضي سابقاً[٢٤]؛ وبذلك يكون «جبري» واعياً بما يتصل بموضوع حياة اللغة، من حيث عوامل بقائها ودوامها، أو أسباب اضمحلالها وانقراضها، متمنّياً إنشاء معجم يتابع الألفاظ كتابيًّا ودلاليًّا[٢٥]، مبيّناً أنّ الكتّاب والشعراء هم متعهّدو اللغة، ومتفقّدوها الذين زادوا في محاسنها وفتنتها، وهم المعنيون بمسألة اللغة قديماً وحديثاً. يقول: «... فرحم الله كتّاباً وشعراء تعهّدوها وتفقّدوها فزادوا في محاسنها وفتنتها»[٢٦]، ويقول: «لئن ذهب بلغاء كتّابنا في القديم لقد بقيت آثارهم على وجه الدهر، وبقيت اللغة التي خلّدوا بها هذه الآثار. وكم أشعر بألم إذا قابلت بين غيرة كتّابنا في القرن التاسع عشر على هذه اللغة وبين تهاون كثير من كتّابنا في هذا العصر بأمورها! فقد انحدرت الأذواق وضعف الشعور، فأصبحنا لا

---

(٢٣) ينظر: المصدر السابق، ص١٤٩، ١٥٠.

(٢٤) ينظر: د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص١١.

(٢٥) -شفيق جبري، أنا والنثر، ص١٣٩.

(٢٦) المصدر السابق، ص١٥١.

نعنى بما نكتب ولا نبالي بزلات أقلامنا ولا نمشي على آثار بلغائنا»[٢٧]، مستشهداً على غيرة كتّابنا بـ «قدامة بن جعفر» الذي ركّز مجهوده في كتابه (نقد الشعر) على تخليص جيّد الشعر من رديئه؛ لأن الناس يخبطون في علم جيّد الشعر من رديئه، منذ تفقّهوا في العلم، فقليلاً ما يصيبون[٢٨]، متسائلاً: إذا كان الناس يخبطون في مثل هذا الأمر على أيام «قدامة بن جعفر» فكيف يكون خبطهم فيه على أيامنا هذه؟ ومن المؤلم أن اتساع العصر في مذاهب الثقافة، وسرعة الحياة، والاهتمام بتكاليفها، كلّ هذا قد زاد في الخبط الذي ألم منه «قدامة» في الماضي، فلم نعد نعتني باللفظ حتى أصبحنا نعتقد أن هذا الاعتناء إنما هو من عَرَض الأمور لا من جوهرها، ولم نعد نعرف ما لوضع اللفظ في مواضعه من جليل الشأن في أمور الفنّ ذاتها، وفي الحياة كلّها، فأكثر ما نشهده في عصرنا هذا ممّا نسميه سوء التفاهم إنما هو ناشئ من سوء فهمنا لوجوه اللفظ، وما أصدق ما قاله إمام من أئمة كتّاب الغرب من أن البشر يتناحرون؛ لأنهم لا يتفاهمون! إن وضع اللفظ في مواضعه رأس قواعد الفنّ. ومن هنا يتبيّن لنا خطأ هؤلاء الكتّاب الذين يفردون في بعض كتبهم أبواباً يشحنون فيها ألفاظاً مجرّدة، متقاربة في المعاني، حتّى يسهل على القارئ الاستعانة بها في مقتضى الحال، فكأنهم لا يعلمون أن اللفظ لا تظهر محاسنه أو مساوئه إلا في مواضعه من الاستعمال، أما تجريده من هذه المواضع فما هو إلا علامة موت هذا اللفظ.

وقد بلغ من قلّة عنايتنا باللغة في العصر الذي نعيش فيه أن بعض

---

(٢٧) المصدر السابق، ص ١٧٩–١٨٠.

(٢٨) ينظر: أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ–١٩٨٠م، ص٦١، ٦٢.

الشباب من شعرائنا قد بطلت في معتقدهم مسألة اللغة؛ معنى هذا أنه يجوز لشاعر هذا العصر أن يقرن لفظاً بأي لفظ يريد، وأن يضيف لفظاً إلى أي لفظ يشاء، سواء أكان في ذلك شيء من التناسب أم لم يكن، ولست أدري كيف يكون مصير الذوق الفني إذا رسخت مثل هذه الآراء في الأذهان، لا بل كيف يكون مصير اللغة نفسها[(٢٩)]. فاللغة تقوى وتحضر بقوّة الذين ينتمون إليها وحضورهم، وتضعف بضعفهم، فإن شكا «جبري» من ضعفها في زمنه، فما قولنا نحن اليوم؟.

٣- بقايا الفصاح:

إنّ الربط بين اللغة العربية الفصحى والهوية القومية في معالجة مسألة اللغة لدى «جبري» ينمّ على وعي لغوي، مصاحِبٍ للتمييز بين العامية، بوصفها العدوّ الداخلي الأكبر لتفتيت اللغة العربية، وبقايا الفصاح التي اهتمّ الكاتب بطائفة من ألفاظها كان ينقّب عنها، فجمعها، واستعملها في كتاباته، وهي «الألفاظ التي استفاضت في العامة وأصلها فصيح، إلا أنها مع تعاقب السنين عليها تباعد عنها فريق من الكتّاب، فذهب وهمنا إلى أنها عامية»[(٣٠)]. ولهذه الألفاظ قوة غريبة في حياتها، فقد خلّفها الماضي، وتداولتها العامة فلم تفقد شيئاً من حياتها على الرغم من اختلاطها بألفاظ أعجمية انحدرت إليها من الأمم التي انبسط سلطانها على هذه البلاد أو على بلاد العرب عامة. جمع «جبري» طائفة من هذه الألفاظ، يرجع إليها من حين إلى آخر، فتنطوي له أحقاب بعيدة، ويرى في تضاعيفها حياة بلد بأجمعه؛ إذْ إنها تفصح عن ناحية من نواحي الاجتماع أو الاقتصاد، أو عن

(٢٩) ينظر: شفيق جبري، أنا والنثر، ص ١٣٦-١٣٧.

(٣٠) المصدر السابق، ص١٥٢.

معنى من المعاني النفسية أو المادية، أو غير هذا كلّه، ولهذه الألفاظ، أيضـاً، منزلة رفيعة وسلطان قوي في الأدب، لصلتها بالعامة على تراخي السنين، ولامتزاجها بألسنتهم، وإذا لزمنا أن نخاطب الناس على مقادير عقولهم حتى يكون لكلامنا تأثير في هذه العقول فيلزمنا أن نخاطب العامة بألفاظهم التي يأنسون بها، فالكلمة التي تأنس بها تعمل في القلب أو في العقل أو في النفس غير العمل الذي يعمله الكلام المستوحش[(٣١)].

وبذلك نجد إشارةً واضحة إلى البحث عن هذه الألفاظ التي استفاضت في العامة، وأصلها فصيح؛ لأنها تنفتح دلاليًا على حقب بلدان، فتضيء لنا سياقاتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والحضارية، محتفظةً بحياتها على الرغم من اختلاطها بألفاظ أعجمية، انحدرت إليها من الأمم التي انبسط سلطانها على هذه البلاد، أو على بلاد العرب عامة. ليس هذا فحسب، بل إن لهذه الألفاظ منزلة رفيعة في الأدب، لأنها تحقق التواصل بين المبدع والمتلقي. وعلى الرغم من أن «جبري» مدح سيد الكتّاب: الجاحظ، الذي تغلغل إلى روح العامة، فمال إلى مصطلحاتهم وانبسط إلى تعابيرهم، لا يحرّض على استعمال الألفاظ العامية، أو على الخروج على قواعد الإعراب في بعض المواضع، فما يجوز للجاحظ لا يجوز لـ «جبري»، ولا لغيره، فهو سيد اللغة بحذافيرها، لا تفلت منه لفظة منها، وإنما مدار كلامه على إحياء طائفة من الألفاظ العامية التي لها أصل فصيح، وتدل على بعض المعاني الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو النفسية، أو غير ذلك، وقد حافظ قسم من هذه الألفاظ على معناه الأول، فلم ينشأ تفاوت بين المعنيين: الفصيح، والعامي، وقسم منها عدّل بعض التعديل

(٣١) المصدر السابق، ص١٥٢.

ولكن بنسبة بين المعنيين مستحكمة على الرغم من هذا التعديل، متوقفاً عند بعض دلالات هذه الألفاظ في القاموس المحيط، وفي الاستعمال العامي، مبيّناً أن بين المعنيين: الفصيح، والعامي، نسبة واحدة، فلا فرق بين معناها الفصيح ومعناها العامي، من ذلك قولهم: نغش له قلبي، أي: انبسط إليه، وأنس به. وفي القاموس المحيط: وهو ينغش إليه؛ أي: يميل. فهذه المادة لم تفقد شيئاً من صلتها بأصلها اللغوي، فما زالت على معناها الأول دون أن يدخلها شيء من التعديل(٣٢).

ليس هذا فحسب، بل توقف «جبري» عند بعض التراكيب التي تستعملها العامة في كلامها، وهي فصيحة؛ وبذلك يكون هدفه إحياء طائفة من بقايا الفصاح سواء أكانت هذه البقايا مفردات أم تراكيب، وقد يكون في هذه الألفاظ دليل قوي على فصاحة اللغة في الشام أو على قربها من الفصاحة.

قد نسمع في عصرنا هذا من العامة مفردات وتراكيب جرت بها ألسن الناس من ألف سنة، ولو سلمت ألسنتنا في خلال هذه الألف السنة من الفساد الناشئ عن مخالطة الأعاجم لكانت لغتنا العامية في عصرنا قريبة من لغة الأدب، فما كنا نشعر بتباعد اللغتين، وهو تباعد يرى «جبري» أنه يزول أثره بعض الشيء في مستقبل الأيام بفضل أمور كثيرة، كالجرائد، والمجلات، والمدارس، ودور الإذاعة وأمثالها. وإذا قارنا بين لغتنا العامية في هذا اليوم ولغتنا العامية من نصف قرن فإنا ندرك الفرق بينهما، فلا شك في أن العربية العامية تقرب كل يوم من لغة الأدب(٣٣). فالهدف، إذن، «ليس النزول بالفصيحة إلى مستوى العامية، بل الارتفاع بالعامية إلى ما يقرب من

(٣٢) ينظر: شفيق جبري، أنا والنثر، ص١٥٢-١٥٦.

(٣٣) ينظر: المصدر السابق، ص ١٥٦-١٥٨.

الفصيحة، مع ملاحظة أن استعمال فصاح العامية لا يكفي وحده لرفع مستوى الخطاب اليومي الشفهي، بل لا بدّ من مراعاة تركيب الجملة العربية بما لا يتعارض مع قواعد النحو والصرف العربيين، ومراعاة نطق الحروف من مخارجها الأصلية»(٣٤).

فهدف «جبري» من الجهود اللغوية التي بذلها هو رفع مستوى السلامة اللغوية، سعياً منه إلى ردم الهوة بين العامية والفصحى، وصولاً إلى مستوى من الخطاب اليومي الشفوي ينجو من ركاكة العامي وخطئه؛ وبذلك يكون «جبري» قد عمّق الوعي بأهمية اللغة العربية الفصحى في حياتنا ومستقبلنا؛ لأنها تحقق هذا التواصل والاستمرار اللغوي بين أبنائها منذ أقدم نصّ مكتوب وحتى أحدث ما أنتجه عصر الحاسوب والشبكة العالمية للمعلومات. فهل غير اللغة العربية ما يوحّد أبناءها أمام الأخطار والصعاب في زمن أصبح المتباعدون فيه لغة وتاريخاً وتراثاً يتجمّعون ويحتشدون طلباً للمصلحة ورغبة في الوصول إلى القوّة؟.

خاتمة:

بناءً على ما سبق نجد أن «شفيق جبري» من المعنيين بمسألة اللغة العربية الفصحى، بوصفها مكوّناً مهمًّا ثابتاً من المكوّنات التي تحدّد الهوية الوطنية والقومية والثقافية والحضارية للأمة العربية، مع لفت الانتباه إلى أن مفهوم الهوية مفهوم متغيّر، متحرّك، وهو في حالة تغيّر دائم، لارتباطه بالمجتمع. كل ذلك يعني أن الهوية تحتاج إلى صياغة، وتشكيل، وتنمية، عبر التفاعل مع السياقات الجغرافية، والتاريخية، والاجتماعية، والسياسية

(٣٤) ينظر: د. ممدوح خسارة، معجم فصاح العامية من لسان العرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، مقدمة المؤلف.

والثقافية، فتكون مرنة بالقدر الذي يمكنها من الحضور في الواقع؛ وبذلك تكون الهوية «مجموعة من الخصائص التاريخية واللغوية والنفسية التي تفصل بين جماعة وأخرى، الأمر الذي يجعلها تخرج من إطار الثبات، لكونها نتاج حركة متعاقبة لجملة من الشروط التي تفرض على كل مرحلة مجموعة من التحولات النوعية في المجتمع، فتؤدي إلى حدوث نوع من التوازن والاستقرار بين القديم الموروث والجديد الذي يسعى لتعيين وجوده. ولكي نعي هذا التغيّر والتطوّر لا بدّ من وعي الخلفية التاريخية التي ولدت هذا التغير، والعوامل التي أسهمت في حدوثه»(٣٥).

إن وعي التغير والتطور في سياقاتهما التاريخية يجسّد التحول الذي أصاب المجتمعات العربية، بوصفه الانتقال من الوحدة إلى التعدّد الذي أصبح الهدف العالمي. والهدف الوحيد في هذا التحول هو ما خلقته الهوية من أهمية متنامية على الساحة العالمية، لأن كلّ ما يسمّى الأمة يمسّ التجسيد الحضاري للهوية الثقافية القومية، بوصفها الهوية المشتركة التي تجمع أبناء الوطن العربي، وهذا لا يعني إقصاء الهويات الوطنية الأخرى وإلغاءها، ولا يعني فرض نمط ثقافي معيّن من الأنماط الثقافية المتعدّدة الأخرى. فالوظيفة التاريخية لهذه الثقافة هي وظيفة التوحد المعنوي والروحي والعقلي، والارتفاع بالوطن، وإيجاد أسباب الانفتاح على الثقافة والهوية الخارجية؛ لأن التنوع لا يلغي الوحدة العربية، ويبقي اللغة مقوّماً من أهمّ مقوّمات تعيّن الهوية الحاملة شعور الانتماء الذي يضعف أو يزول من دونها، وبذلك تحافظ على الأمة، ومشاعرها، ونمط تفكيرها، وطرائق

(٣٥) عهد كمال شلغين، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع: دراسة في الفكر العربي المعاصر، وزارة الثقافة – الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٥، ص٧.

حياتها، وثقافتها، وإرثها الحضاري؛ بمعنى أنها مرتبطة بفكرة العروبة ارتباطاً جذريًّا.

أما العلاقة بين اللغة والتطور فهي علاقة تجسّد اللغة، بوصفها كائناً حيًّا، يتجدّد بآليات حدّدها «جبري» بالمشتقات، والتطور الدلالي للألفاظ، وبقايا الفصاح، وهي آليات تؤهّل اللغة العربية الحية لاحتضان الثورة المعرفية العالمية، ناقضة رأي مَنْ يتهمونها بالجمود، وبعدم قدرتها على مسايرة تطور العصر، وتؤهّل المشتغلين عليها لإنشاء معاجم دلالية ترصد تطور الالفاظ دلاليًّا، على وفق نظرية الحقول الدلالية.

* * *

المصادر والمراجع

- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ساعدت جامعة الكويت على نشره، د. ط، وت.
- شفيق جبري، أنا والنثر، محاضرات ألقاها الأستاذ «شفيق جبري» على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠.
- طوني بينيت – لورانس غروسبيرغ – ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط١، أيلول (سبتمبر) ٢٠١٠.

- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط١، كانون الثاني/ يناير/ ٢٠١١.
- عهد كمال شلغين، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع: دراسة في الفكر العربي المعاصر، وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٥.
- قدامة بن جعفر (أبو الفرج)، نقد الشعر، تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- ممدوح خسارة، معجم فصاح العامية من لسان العرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

* * *